# خـــــرافة الإلحـــــــــاد

**نشر في جريدة أخبار الخليج في 2 سبتمبر 2018**

**بقلم: الدكتور زكريا خنجي**

**منذ أشهر وقع بين يدي كتاب للكاتب الدكتور عمرو شريف بعنوان (خرافة الإلحاد)، وفي الحقيقة أنا لست من المهووسين بالفكر والفلسفة الإلحادية، بل إنني أتذكر أن الفكر والفلسفة الإلحادية قد انتشرا حولنا منذ بداية الستينيات من القرن الماضي حتى سقوط الاتحاد السوفيتي، أو هكذا أنا عاصرته؛ لذلك فقد قرأنا عنها، في ذلك الوقت، الكثير من الكتب والأدبيات، من أجل التعرف على هذا المجهول.**

**وفي نفس الوقت، كنت أقرأ رواية (الأصل) للمؤلف دان براون، ومن المعروف أن كل رواياته تتحدث عن فكرة واحدة، وهي الصراع القائم بين الدين والعلم، مثل كتاب (الملائكة والشياطين، وشيفرة دافنشي.. وما إلى ذلك)، وفي كتاب (الأصل) يطرح المؤلف سؤالا يحاول أن يجيب عنه من خلال الدين المسيحي والعلم الغربي المادي وهو: من أين جئنا ؟ وإلى أين المصير؟**

**ومن المعلوم أن الفكر والفلسفة الإلحادية، وكذلك الفكر الغربي لا تجيب عن مثل هذه التساؤلات، ولكنها تعني بطريقة أو بأخرى – كما قال كارل ماركس – بأنه لا إله وأن الحياة مادة، وأن الكون قد نشأ بطريقة تلقائية**

نتيجة لأحداث عشوائية من دون صانع، كما ظهرت الحياة ذاتيًا من المادة عن طريق قوانين الطبيعة وربما بسبب الحاجة لوجود الحياة على الأرض، كما قال لي أحدهم ذات يوم، والكلام كثير في هذا الموضوع ولا نريد الخوض فيه، لذلك يؤرقهم هذا السؤال الذي لا يعرفون الإجابة عنه، وهو: من أين ؟ وإلى أين ؟

كانت مثل هذه الأفكار تدور في أذهاننا ونسأل أنفسنا دائمًا إلى أي مدى هذا الكلام صحيح ؟ كيف نشأت الحياة ؟ وهل يمكن أن تكون الحياة هكذا قد نشأت بصورة عشوائية ؟

وعندما ذهبنا إلى الجامعة، وبدأنا في دراسة قوانين الطبيعة والأحياء والكيمياء، وجدنا أن الحياة لا يمكن، لا يمكن ونكررها عشرات بل مئات المرات، أن تكون قد ظهرت بصورة عشوائية، فلا يمكن أن تتم المعادلات والتفاعلات الحيوية التي تجري في خلايا الكائن الحي بصورة عشوائية، فكيف يمتزج ثاني أكسيد الكربون بالماء مع بعض العناصر الكيميائية البسيطة ليتحول كل هذا بفعل الطاقة الشمسية إلى فاكهة بأشكالها المتنوعة، وأزهار وأشجار عملاقة وغذاء، وسكر وبروتين ودهون وما إلى ذلك بصورة عشوائية ؟.. لا يمكن.

كيف تتغذى البكتيريا ؟ وكيف تعيش الأميبا ؟ وكيف تتحرك البراميسيوم؟ وأسئلة أخرى كثيرة؛ لذلك رحنا نغوص في المجاهر الضوئية، كما أخذنا شرائح متناهية الصغر للبكتيريا والفطريات بالمجاهر الإلكترونية، فوجدنا

تلك القدرة الإلهية التي نظمت كل صغيرة وكبيرة في هذه الكائنات الدقيقة التي يعتبر وجودها-وحده-تحديا كبيرا للعقل، فلا يمكن – ونكررها مئات المرات – أن توجد الحياة بهذه الدقة وبهذا الميزان وبهذا التنظيم من غير قوة عاقلة تديرها.

عند هذا الحد انتهت بالنسبة إلى الفلسفة والفكر الإلحادي، وشعرت أن هذه الفكرة ما هي إلا فكرة لقيطة ليس لها جذور في الأرض.

وفي منتصف التسعينيات، في بريطانيا تقابلنا بالعديد من الأفراد – من الجنسين – وكان معظمهم يتندر على الأشخاص الذين يؤمنون بوجود الإله، ولسان حالهم يقول نحن لا نؤمن باللّه بأي صورة كان، بل نؤمن بأن العلم وحده قادر على أن يحل كل الأمور التي نجهلها، فكانوا يسخرون من الذهاب إلى دور العبادة ومن الطقوس المسيحية التي يعيشونها، والغريب في الموضوع أن من بينهم رجالاً ونساء كبارًا في السن، فكان سؤالي الوحيد لهم: لماذا لا تؤمنون باللّه ؟ فكانت إجاباتهم واضحة وصريحة: إن الدين يحجر على العقول وحرية المعرفة والتفكير، وكذلك يقيد الحريات الشخصية وما إلى ذلك من كلام كثير يتكرر في كتب الكثير من الفلاسفة ومفكري الغرب القدماء والمعاصرين من أمثال: أوجست كونت، والفريد آبروسير، وأنتوني فلو، وريتشارد روكنز وغيرهم، فوجدت نفسي أقرأ لهؤلاء، وقد قرأت في الفكر والفلسفة الإلحادية مرة أخرى.

فوجدت أن الإلحاد في الاتحاد السوفيتي والصين يختلف نوعًا ما عن الإلحاد في الفكر الغربي، ففي الصين والاتحاد السوفيتي قد ارتبط بالفكر السياسي الشيوعي الذي أوهم الناس بجمهورية أفلاطون المثالية إن تركوا الدين جانبًا وانجرفوا إلى خلية النحل والنمل التي تمتلك فيه الملكة كل شيء. أما بقية أفراد الشعب فإنهم يعيشون على فتات الخبز الذي ترميه لهم الملكة وهي هنا الحزب الحاكم، ومن الملاحظ أن الناس قد عاشوا هذا الوهم، لكنهم تفاجأوا أنهم يعيشون هذا الوهم عندما تداعى الاتحاد السوفيتي، وسقطت كل الأقنعة التي كانت تخبئ خلفها كل المصالح والأفكار والتيارات السياسية الدكتاتورية التوسعية.

أما في الغرب، فقد ارتبط الإلحاد بالعلم الذي حاول ولا يزال، أن يزحزح الدين عن موقعه الذين كان يسيطر به على عقول البشر، وخاصة في عصر الظلمات الذي كان يعيش فيه الغرب بسبب سيطرة رجالات الكنيسة على العقول، والذين كانوا يقولون: «إن العالم يسير طبقًا لخطة إلهية محكمة، فكل شيء في الكون له هدف وغاية، فقد خُلقت الشمس كي توفر النور للإنسان خلال النهار، بينما يزوده القمر بالضياء ليلاً، كذلك يظهر قوس قزح ليذكر الإنسان بوعد اللّه للنبي نوح بألا يدمر الجنس البشري مرة أخرى عن طريق الطوفان، وإذا كانت هناك أشياء مقززة كالحشرات والثعابين والقاذورات، فهي عقاب للإنسان على خطيئته الأصلية، حين عصى آدم ربه وأكل من الشجرة».

وتشير العديد من الدلائل التاريخية إلى أن مثل هذه العبارات والكثير منها أعطت الهيمنة والقوة والسلطة والثروة لرجال الكنيسة، فهم الذين كانوا يتحكمون في الدين والعلم والبشر. وقد كان كل من يخرج عن هذا القطيع يتهم بالسحر فيحرق، كما حدث مع العديد من علماء الغرب، واستمر ذلك قرونا طويلة، حتى بلغ الأمر أن رجالات الدين كانوا ينصبون الملوك ويعزلونهم بحسب قربهم من الكنيسة أو بعدهم عنها.

ولكن في النهاية خرج العلم من قمقمه، واستطاع أن ينتصر في ذلك الوقت على الدين؛ لذلك أصبحت ردة فعل الشعوب الغربية هي أن تكفر بكل ما يمت للدين بصلة، فكان الذكاء الحقيقي والشجاعة الكافية أن تنكر علاقتك بالدين وبالإله وكل ما يتصل بهذا الأمر سواء من قريب أو بعيد، ليس ذلك فحسب، بل قام علماء وفلاسفة الغرب بتفسير كل شيء – وأكرر كل شيء – من خلال منظور الفكر الإلحادي المادي، فالكواكب تسير وفق أفلاك منظمة حددتها القوى الطبيعية، والكائنات الحية نشأت في الكون بسبب قوة طبيعية ذاتية من فراغ، وكل التفاعلات والمعادلات الكيميائية الحيوية التي تتم في خلايا الكائن الحي لتحول المواد البسيطة إلى مواد معقدة، تجري وفق مخطط يقوم به الكائن الحي نفسه، وأن الكائنات تتحول وتتطور من تلقاء نفسها بقوة الدفع الطبيعية، ووفق تحولات تجري في صبغاتها الوراثية، وكان الكثير من العلماء يتعمد أن يهمل وجود اللّه بسبب أو بأخر حتى لا يتهم بأنه مؤمن؛ لذلك نجد أن الغرب الذي كان يحرق

العلماء ومن كان يؤمن بالعلم أصبح اليوم يحرق الدين ومن يؤمن بالدين، فقد انقلب الغرب رأسًا على عقب، كما يقال.

وبهذا الفكر نفسه حاول الكثير من مفكري العرب أن ينقل التجربة الغربية بكل حذافيرها إلى العالم العربي، سواء كانت تجربتهم صحيحة أو خاطئة، فهم يريدون أن يزيحوا الدين عن كل شيء وأن يحصروه ويحاصروه في المساجد أو في جلسات الذكر الصوفية أو الموالد أو ما شابه ذلك. إن عددًا من علماء العرب ومفكري العالم الإسلامي يجدون أن الدين ملهاة للشعوب وأن تعاليمه ما هي إلا أساطير ودائمًا يحاولون أن يقيموا علاقة بين الإسلام والتخلف العلمي والاضطهاد الفكري والسياسي، وكل حججهم أنه أثناء الحكم الإسلامي تم سجن الفيلسوف والطبيب ابن سينا وغيرهم من الفلاسفة والعلماء الذين كانوا يغردون خارج السرب، لكنهم في الحقيقة يحاولون أن يتجنبوا الحديث – أيضًا – عن الإمام أحمد بن حنبل الذي سجن بسبب دفاعه عن القرآن، وكذلك ابن تيمية وغيرهم من مفكري وعلماء الإسلام أنفسهم.

هؤلاء نسوا وتناسوا أن الدولة الإسلامية ليست جنة الله على الأرض، بل إن مثلها مثل كل الحضارات التي مرت على الكرة الأرضية، تمر بفترات الذروة فتسود وتسيطر وتزدهر حضارتها في فترة زمنية ما، وينتشر خلالها العلم ورجالات الفكر والثقافة والعلم والطب والعلم التجريبي وغيرهم، كما كانت تمر – أيضًا – بفترات ضعف شديدة تسود فيها المهازل والرغبة الشديدة

في التملك وحب الذات وتغليب المصالح الشخصية على مصالح الأمة، حينئذ – ونقصد في لحظات الضعف – يتم اضطهاد علماء الدين والفكر والثقافة والعلم التجريبي وكل شيء، فيُضطهد ابن سينا، وكذلك يُضطهد أحمد بن حنبل وابن تيمية وغيرهم الكثير، لكن هؤلاء تناسوا، أيضًا، أنه ليس للدين ولا للإسلام علاقة بكل ذلك، بل هي أهواء ومصالح شخصية، فما علاقة الدين والعقيدة الإسلامية بالإرهاب والقاعدة وداعش ؟ والحقيقة تؤكد لنا أنها أهواء ومصالح شخصية ونزاعات سياسية ليس لها علاقة بالإسلام لا من قريب ولا من بعيد.

وللأسف، فإن مفكري العرب لا يهمهم كل هذا الكلام، ولا يريدون أن تظهر الحقيقة، ولا يريدون من الأفراد أن يقولوا الحقيقة؛ لأنهم هم من يخاف الحقيقة، وذلك لأسباب نفسية وقواقع يعيشون فيها، ولا يرغبون في الخروج منها فإن الحقيقة تكشفهم؛ وذلك ليس لأنهم مفكرون، بل للأسف لأنهم فاشلون في التفكير، فهم أقرب ما يكونون للتقليد والنقل الأعمى من الغرب من غير عقل ولا تفكير. هؤلاء لا يهدفون إلا إلى الهروب من الدين وتعاليمه بأي صورة كانت، وهم أكثر الناس الذين يحاولون إلصاق تهمة التخلف بالدين في هذا العصر الذي نعيشه، وما يؤكد كلامي، أن عددًا من المراجع التاريخية عندما قسم الملاحدة في العالم تم تقسيمهم إلى أربعة أنواع، وهي:

1. **علماء وفلاسفة؛ وهؤلاء تبنوا الإلحاد، ثم وجدوا في نظرية التطور للعالم دارون - تطور الأنواع وأصلها - حجتهم العلمية الكبرى.**
2. **الشيوعيون؛ وهم أتباع الاتحاد السوفيتي والصين، وهؤلاء من أتباع «الدين أفيون الشعوب».**
3. **أفراد غير متخصصين؛ وهؤلاء قد وجدوا في الإلحاد فرصة للهروب من الدين وتعاليمه وفكره.**
4. **عدد من الصامتين؛ وهم الذين لا يعرفون لماذا هم ملحدون في الأصل.**

**وفي الوطن العربي نجد أن معظم من يدعون الإلحاد يمكن تصنيفهم ضمن الفئتين الثالثة والرابعة، فهم يدّعون الإلحاد للهروب من تعاليم الدين أو أنهم حتى الآن لا يعرفون لماذا هم ملحدون، وعلى الرغم من ذلك فإنهم أكثر الفئات جدلاً ومناكفة، فهم لا يرغبون في طرح وجهات نظر أخرى، وخاصة التي تحرجهم أو تهز مبادئهم التي بنيت على أرض مكونة من كثبان رملية لا قرار لها.**

**والخطورة الحقيقية ليست فيمن يتبنى الفكر الإلحادي فهذا شأنه هو، وخاصة في هذا العصر الذي نعيشه ، بل إن الخطورة تكمن في أن الفكر والفلسفة الإلحادية يقوضان المنظومة الأخلاقية والتشريعية التي تبنى عليها المجتمعات، فتتلاشى الأخلاق والقيم الثابتة المبنية على دعائم راسخة من حياة البشر؛ إذ إنه لا يبقى هناك أي مبرر لوجود الأخلاق والقيم**

في حياة البشر، حتى التشريع فإنه يصبح مرهونًا بمصالح البشر المادية العاجلة، فإن كانت السرقة لها مبرر فلنسرق، وإن كان للفساد الإداري والمالي مبرر فلنسر في هذا التيار، وكل شيء يمكن أن يوجد له مبرر عند البشر؛ لأن ليس للمجتمع أي قيم يمكن أن تكون ثابتة ولا حتى مرجعية تشريعية يمكن الرجوع إليها، وذلك بسبب أن كل تلك الأمور ستكون خاضعة لرغبات وأهواء شخصية، وهي التي تتحكم في الشعوب وربما تصل إلى مرحلة الخنق والتعذيب وكبت الحريات، كل ذلك سيكون له مبرر أيضًا، فإن قالت تلك الشخصيات إنه يجب خنق الشعوب أو حتى القضاء عليهم فإنه سيتم خنقها والقضاء عليها، كما حدث سابقًا في الصين والاتحاد السوفيتي.

واليوم، يجتمع الإلحاد الشرقي والغربي وكذلك الإلحاد العربي – وهذا ليس من خيالات نظرية المؤامرة، لكنها حقيقة –في طرح ما يعرف (بالإسلاموفوبيا) أو ما يسمى تعسفًا (الإسلام الظلامي) أو الكثير من تلك التسميات التي تعني بوضوح تأصيل العداء ليس لأي دين، بل تأصيل العداء للإسلام وتخويفهم من هذا الدين الذي يفتح عقول البشر ويترك لهم المجال الواسع للتفكير والحرية والعدالة في جميع أوجهها، هؤلاء أنفسهم لا يتجرأون على أن يتحدثوا عن اليهود واليهودية والصهيونية، فلم نسمع قط، بمصطلح (اليهود فوبيا) أو (المسيحية فوبيا) أو (الهندوسية فوبيا) أو (البوذية فوبيا)، ولماذا يربطون (الفوبيا) بالإسلام

**فقط ؟ ألا توجد أديان في الكرة الأرضية غير الإسلام ؟ هل كل تشريعات الأديان الأخرى مثالية وأنها أفضل من الإسلام ؟ هل أتباع كل تلك الأديان مسالمون وليسوا إرهابيين ؟**

**لكن الحقيقة تقول اليوم إن الإلحاد أصبح قضية سياسية تنتشر في جميع الأوطان، وخاصة بين أبناء العالم العربي؛ وذلك لتحقيق هدف واحد فقط، وهو القضاء على الإسلام، لكن مرة أخرى لماذا الإسلام فقط ؟ وأترك لكم الإجابة.**